سُورَةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مَكِّيَّةٌ [إِلاَّ الآيَاتِ ١٢ و١٧ و١١٤ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائةٌ وثلاثٌ وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من «حكُم»: بضم الكاف، إذا صار حكيماً، أي: جعلت حكيمة؛ كقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحَكَمَةَ لتمنعها من الجماح؛ قال جرير [من الكامل]:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[1]

وعن قتادة: أُحكمت من الباطل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة، وآية آية، وفرقت في التنزيل، ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بين ولخص، وقرئ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: «ثم فصلت» أي: فرّقت بين الحق والباطل.

فإن قلت: ما معنى ثم؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل،

---

(١) لجرير، يقول: يا بني حنيفة «امنعوا سفهاءكم عني كما تمنع الدابة بالحكمة، فإن غضبي عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، فخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، عليكم غضبي.
ينظر ديوانه (٥٠)، اللسان: حكم، الدر المصون (١/ ١٨٤).

وكتاب: خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له، وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن؛ لأنَّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها، أي: بينها وشرحها/ ٣٢٥ب خبير عالم بكيفيات الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾: مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنَّ في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم ألاَّ تعبدوا إلا الله، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم منه نذير؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ والضمير في (منه): لله ـ عزّ وجلّ ـ أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته؛ كقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؟

قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا، والاستغفار: توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فصلت: ٣٠]، ﴿يُمَتِّعْكُم﴾: يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى أن يتوفاكم؛ كقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل: ٩٧]، ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾: ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل، وزيادة فيه جزاء فضله لا ينبخس منه، أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: وإن تتولوا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: «وإن تَولوا»، من ولي.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه، ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم، ونظير إضمار يريدون ـ لقود المعنى[1] إلى إضماره ـ الإضمار في قوله تعالى: ﴿اَضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، معناه: فضرب فانفلق، ومعنى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ويزيدون الاستخفاء[2] حين يستغشون ثيابهم ـ أيضاً ـ كراهة لاستماع كلام الله تعالى؛ كقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده، روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطق حلو، وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله/ ٣٢٦أ ﷺ مجالسته ومحادثته، وهو يضمر خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين، وقرئ: «تثنوني صدورهم»، واثنونى: «افعوعل» من الثني، كاحلولي من الحلاوة، وهو بناء مبالغة، قرئ: بالتاء والياء، وعن ابن عباس: «لتثنونى»، وقرئ: «تثنونّ» وأصله: «تثنونن» «تفعوعل» من الثن[3] وهو ما هش وضعف من الكلأ، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: «تثنئن»، من اثنأن: «افعأل» منه، ثم همز كما قيل: ابيأضت، وادهأمت، وقرئ: «تثنوي»، بوزن ترعوى.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظ الوجوب[4] وإنما هو تفضل؟

---

(١) قوله: «لقود المعنى» أي لتأدية المعنى (ع).

(٢) قوله: «ويزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله: ومعنى ألا حين الخ. كما قال أولاً، يعني ويريدون (ع).

(٣) قوله: «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر: يبس الحشيش.

(٤) قال محمود: «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب... إلخ» قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن الله ـ عز وجل ـ لما وعدهم فضله ـ ووعده خبر، وخبره صدق ـ وجب وقوع الموعود: أي يستحيل في العقل أن لا يقع. للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور. هذه

قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كنذور العباد، والمستقرّ: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع؛ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة، ﴿كل﴾: كل واحد من الدواب، ورزقها، ومستقرّها، ومستودعها في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض، وارتفاعه فوقها إلا الماء، وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء[1] على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام، كانت أحوج إليه وإلى إمساكه، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: متعلق بخلق، أي: خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب: المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم، يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟

قلت: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين: فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟

قلت: الذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم؛ تشريفاً لهم، وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم، وعن النبي ﷺ:

= قاعدة أهل الحق. وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والله الموفق.

(١) قوله: «وقيل: وكان الماء» لعله «كان» بدون واو. ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء (ع).

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَأَوْرَع عَنْ مَحَارِمِ الله، وَأَسْرَع فِي طَاعَةِ الله» (٧٦٢)، قرئ: «ولئن قلت إنكم مبعوثون»، بفتح الهمزة، ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق/ ٣٢٦ب عنك تشتري لنا لحماً، وأنك تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم: لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن: «قلت» معنى: «ذكرت»، ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنّ السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر؛ تشبيهاً له به، أو أشاروا[1] بهذا إلى القرآن؛ لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً، فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: «إن هذا إلا ساحر»، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿ٱلْعَذَابَ﴾: عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين، ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: إلى جماعة من الأوقات، ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾: ما يمنعه من النزول؛ استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء، و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها؛ إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: وأحاط بهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

---

٧٦٢ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٧) رقم (١٨٠٠٣) من طريق داود بن المحبر عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن عبد الله بن عمر به.

وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وداود بن المحبر في كتابه «العقل»؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٤٥).

قال الحافظ: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل، والحرث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر، وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول. انتهى.

---

(١) قوله: «أو أشاروا بهذا» لعله: وأشاروا (ع).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: للجنس، ﴿رَحْمَةً﴾: نعمة من صحة وأمن وجدة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾: ثم سلبنا تلك النعمة، ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾: شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه، ولا استرجاع، ﴿كَفُورٌ﴾: عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نَسَّاءً له، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائب التي ساءتني، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾: أشر بطر، ﴿فَخُورٌ﴾: على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾: آمنوا، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين، لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكاد يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم، واستهزائهم، واقتراحهم، بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم؛ مخافة ردّهم له وتهاونهم به، ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾: بأن تتلوه عليهم، ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾: مخافة أن يقولوا/ ٣٢٧أ، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾: يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم.

فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟

قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد: السيادة والجود الثابتين المستقرّين، فإذا

أردت الحدوث قلت: سائد، وجائد، ونحوه، كانوا قوماً عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي [من الطويل]:

بِمَنْزِلَةِ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ ... بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا[1]

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

(أم): منقطعة، والضمير في: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لما يوحى إليك، تحداهم أوّلاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ بمعنى: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له، ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾: صفة لعشر سور، لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاودهم[2] على دعواهم، وأرخي معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إليّ، وأنّ الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم ـ أيضاً ـ بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب: فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟

قلت: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ﴾؟

قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأنّ رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدّونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ؛ كقوله [الطويل]:

---

(١) للعكلي. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعيل».
ينظر: البحر المحيط (٥/٢٠٧)، روح المعاني (١٢/١٩)، الدر المصون (٤/٨٣).

(٢) قوله: «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسايرهم (ع).

فَـإِنْ شِـئْـتُ حَـرَّمْـتُ الـنِّـسَـاءَ سِـوَاكُـمُ ....(١)

ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في: (لم يستجيبوا): لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه، ﴿و﴾: اعلموا عند ذلك، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا﴾: الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾/ ٣٢٧ب: مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد، ومعنى: (فهل أنتم مسلمون): فهل أنتم مخلصون؟

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾: نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية، كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدّق: فعلت حتى يقال، فقيل: ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: «يوفّ»، بالياء على أن الفعل لله ـ عزّ وجلّ ـ «وتوفّ إليهم أعمالهم» بالتاء، على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: «نوفي»، بالتخفيف، وإثبات الياء؛ لأنّ الشرط وقع ماضياً؛ كقوله [من البسيط]:

.... يَـقُـولُ: لاَ غَـائِـبٌ مَـالِـي وَلاَ حَـرِمُ(٢)

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة؛ إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا،

---

(١) تقدم.
(٢) تقدم.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرىء: «وبطل» على الفعل، وعن عاصم: «وباطلاً» بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية، وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلاً، أي: باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة[1]، أي: لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً، وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويتبع ذلك البرهان، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن، (منه): من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدّم ذكره آنفاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾: ومن قبل القرآن، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان ـ أيضاً ـ من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: «كتابَ موسى» بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أنّ القرآن/ ٣٢٨أ حق، (ويتلوه): ويقرأ القرآن، (شاهد منه): شاهد ممن كان على بينة؛ كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: ويتلو من قبل القرآن والتوراة، ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مؤتمًّا به في الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني من كان على بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: يؤمون بالقرآن، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكة، ومن ضامهم من المتحزّبين على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾، وقرئ: «مُرية»، بالضم، وهما الشك، ﴿مِّنْهُ﴾: من القرآن أو من الموعد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) قوله: «فمن كان على بينة» عبارة النسفي: كمن كان. وعبارة الخازن: أفمن كان على بينة من ربه، أي كمن كان يريد... إلخ (ع).

كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: يحبسون في الموقف، وتعرض أعمالهم، ويشهد عليهم، ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فواخزياه، ووافضيحتاه، والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشراف، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد، وهم الثانية؛ لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وقرئ: «يضعف»، ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له. كأنهم لا يستطيعون السمع[1]، ولعل بعض المجبرة[2] يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع[3] به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من

---

(١) قال محمود: «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم... إلخ» قال أحمد: أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلته حيث يقول: فيوعوع بها على أهل العدل، يعني الآية المذكورة. وهذه سقطة عظيمة، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة، وإنما تلا كتاب الله تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة. وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير. ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه قال: ما كانوا يستطيعون السمع، وهو طاعته. وما كانوا يبصرون. وأما في الآخرة فإنه قال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

(٣) قوله: «فيوعوع به» في الصحاح: الوعوعة صوت الذئب.

أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ فكيف يصلحون للولاية؟ وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: اعتراض بوعيد، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: من الآلهة وشفاعتها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فسر في مكان آخر، ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة؛ ومنه قولهم للشيء: الدنيء/ ٣٢٨ب الخبيث؛ قال [من الخفيف]:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ ... قِ وَلاَ يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ[1]

وقيل: التاء فيه بدل من الثاء.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع[2]، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع[3]، على أن تكون الواو في: (والأصم)، وفي: (والسميع): لعطف الصفة على الصفة؛ كقوله [من السريع]:

..... الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ[4]

---

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو... إلخ» قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فإن امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين، وإنما ينظر ببيت امرىء القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولكن في صفتين متعددتين، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(٣) قوله: «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله: والذي (ع).

(٤) تقدم.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين، ﴿مثلاً﴾: تشبيهاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير، ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: بالكسر، فلما اتصل به الجارّ، فتح كما فتح في: (كأن) والمعنى: على الكسر، وهو قولك: إنّ زيداً كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾: بدل من: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: أرسلناه بألاّ تعبدوا، ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أو تكون: «أن»: مفسرة، متعلقة بأرسلنا أو بنذير، وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟

قلت: مجازي مثله؛ لأنّ الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر؛ لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور، واضطلعوا بها وبتدبيرها، أو لأنهم يتمالؤون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة[1]، أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة[2]، وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر، لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشر، والأراذل جمع الأرذل؛

---

(١) قوله: «والمجالس أبهة» كسكرة: عظمة (ع).

(٢) قال محمود: «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة... إلخ» قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي. ولكنه ترك الهمز استثقالاً؛ إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوه ولا أسوة. والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه. ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية. وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به، والله أعلم.

كقوله: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] «أحاسنكم أخلاقاً»، وقرئ: «بادي الرأي»، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أوّل الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أوّل رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا: أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر؛ وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم، وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه/ ٣٢٩أ إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله، ﴿مِن فَضْلٍ﴾: من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾: فيما تدّعونه

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: على برهان، ﴿مِّن رَّبِّي﴾: وشاهد منه يشهد بصحة دعواي، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾: بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة.

فإن قلت: فقوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾: ظاهر على الوجه الأوّل، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟

قلت: الوجه: أن يقدّر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة؛ ومعنى «عميت»: خفيت، وقرئ: «فعميت» بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعماها عليكم.

فإن قلت: فما حقيقته؟

قلت: حقيقته: أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى «فعميت عليكم البينة» فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أبيّ؟

قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله[1] وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ يعني: أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً؛ كقولك: أنلزمكم إياها، ونحوه: (فسيكفيكهم الله)، ويجوز: فسيكفيك إياهم، وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم، ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً، والإسكان الصريح: لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر، والضمير في قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: راجع إلى قوله لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وقرئ: و«ما أنا بطارد الذين آمنوا»، بالتنوين على الأصل.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾؟

قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلال ذلك مما تقرفونهم به[2] من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكر،/ ٣٢٩ب وما عليّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون؛ ونحوه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم . . .﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، ﴿تَجْهَلُونَ﴾: تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل؛ من قوله [من الوافر]:

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ..... [3]

---

(١) قوله: «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن (ع).

(٢) قوله: «ذلك مما تقرفونهم به» أي ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح (ع).

(٣) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لعمرو بن كلثوم من معلقته، و«ألا» استفتاحية تفيد التوكيد ـ و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهي. أي: لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر، ونجهل: نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهي. =

أو تجهلون بلقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾: من يمنعني من انتقامه، ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾: وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: معطوف على: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾: حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون؛ مساعدة لكم ونزولاً على هواكم، ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال: ازدرته عينه، واقتحمته عينه.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾: معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته؛ كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: من العذاب المعجل.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ؛ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه، ﴿إِن شَآءَ﴾ يعني: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «فأكثرت جدلنا».

فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟[1]

= وسمي جزاء الجهل جهلاً مشاكلة، أي: فنجازيه فوق فعله بنا، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.

البيت من معلقته المشهورة ينظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٠٢)، والتبيان في علم المعاني والسريع والبيان (٣٤٨)، والبحر (١/١٨٦)، القرطبي (١/١٤٥) والدر المصون (١/١٢٦).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين... إلخ» قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط. والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث. وإن أكلت ثم شربت =

قلت: قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾، وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني.

فإن قلت: فما معنى قوله:[1] ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؟

قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به: سمي إرشاداً وهداية، وقيل: ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يهلككم من غوى الفصيل غوًى، إذا بشم فهلك[2]، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله، ومواعظه، وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾: وإجرامي بلفظ المصدر/ ٣٣٠أ والجمع؛ كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم؛ ونحو: جرم وأجرام، قفل وأقفال؛ وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامي، والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته، فعليّ عقوبة إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا عليّ[3]، ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿لَن يُؤْمِنَ﴾: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع، ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾: إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزن حزن بائس مستكين؛ قال [من البسيط]:

مَا يَقْسِمُ اللهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ ... مِنْهُ وَأَقْعِدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ[4]

= حنث. وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي للذي يليه، ثم جعلهما معاً جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا نطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت، والله أعلم.

(١) قوله: «فإن قلت فما معنى... إلخ» السؤال وجوابه مبني على مذهب المعتزلة: أن الله لا يخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالإغواء على ظاهره: خلق الغي ـ أي الضلال ـ في القلب (ع).

(٢) قوله: «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخم. يقال: بشمت من الطعام ـ بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن (ع).

(٣) قوله: «وتتألبوا علي» أي تتجمعوا. أفاده الصحاح (ع).

(٤) لحسان، يقال: ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول: =

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن لله معه أعيناً تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وألاَّ يحول بينه[1] وبين عمله أحد من أعدائه، و﴿وَوَحْيِنَا﴾: وأنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر»، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه؛ كقوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦].

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء[2] في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزَّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبيًّا، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ يعني: في المستقبل، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع، فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو: إن تستجهلونا، فإنا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج،

= ما يقسمه الله لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه، أي مما قسمه الله لك. واقعد كريماً غير مهان طيب الحال والشأن، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروي: وأقعد بقطع الهمزة، من أقعد المتعدي، فكريماً حال على الأول، ومفعول على الثاني، وفيه تجريد.

ينظر: ديوانه ص ١٤٧، ولسان العرب (بأس)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٢٦١، وتاج العروس (بأس)، وأساس البلاغة (بأس)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٢٨، والمخصص ١٢/ ٣١٧.

(١) قوله: «وأن لا يحول بينه» لعله: وأن يحول (ع).

(٢) قوله: «برية بهماء» أي لا يهتدي فيها الطريق. ويقال: الممر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح.

وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب/ ٣٣٠ب، والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ـ عليه السلام ـ وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة، وقيل: إنّ الحواريين قالوا لعيسى ـ عليه السلام ـ: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفًّا من ذلك التراب، فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، قال: فضرب الكثيب[1] بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ: هكذا أهلكت؟ قال: لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت، قال: حدّثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً، ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾: في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾: هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟

قلت: لقوله: «ويصنع الفلك»، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت: «حتى» بيصنع، فما تصنع بما بينهما من الكلام؟

قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخرو منه.

فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل: (سخروا): جواباً، و(قال): استئنافاً، على

---

(١) قوله: «قال فضرب الكثيب» أي راوي هذه القصة، لكنه غير معلوم (ع).

تقدير سؤال سائل، أو تجعل: (سخروا)، بدلاً من (مرّ)، أو صفة: (لملأ)، و(قال): جواباً، ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عطف على اثنين، وكذلك: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه[1] وإرادته به ـ تعالى الله عنه ذلك ـ قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانُوا ثَمَانِيَة: نُوحٌ وَأَهْلُهُ، وَبَنُوهُ الثَّلاثَةُ، وَنِسَاؤُهُمْ» (٧٦٣)، وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال، ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل: (بسم الله): باركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله/ ٣٣١أ، أو قائلين: بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف؛ كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في: (بسم الله): من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول، والكلامان: أن يكون: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾: جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم[2]؛ كقوله [من الطويل]:

... ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا ..... [3]

---

٧٦٣ ـ أخرجه قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/١٤٦): غريب. أ.هـ وقال ابن حجر: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم. فجمعهم ثمانية. أ.هـ أخرجه الطبري (٧/ ٤٢) رقم (١٨١٨٩) موقوفاً على قتادة. قال الحافظ: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم؛ فجميعهم ثمانية. انتهى.

---

(١) قوله: «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والإرادة ولو شراً (ع).

(٢) قال محمود: «ويجوز أن يقحم الاسم... إلخ» قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحماً، والله أعلم.

(٣) تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا: هو المرء الذي لا صديقه ... أهان ولا خان الأمين ولا غدر =

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقرئ: ﴿مجراها ومرساها﴾: بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين، وقرأ مجاهد: «مجريها ومرسيها»، بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله.

فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضبة؟

قلت: معناه: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال؛ كقوله [من الوافر]:

وَجَـاءُونَـا بِـهِـمْ سَـكَـرٌ عَـلَـيـنَـا ..... (١)

= إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

للبيد بن ربيعة العامري، يوصي ابنتيه أسماء ويسرة. وتمنى: ماض، أو مضارع حذف منه إحدى التاءين، والاستفهام إنكاري وهو كناية عن تحتم الموت. ويوماً: ظرف لحان. والمراد به: مطلق الزمن. وأن يموت: فاعل. وخمش وجهه خمشاً: جرحه بأظفاره، أي: لا تبالغا في الجزع حتى تفعلا ذلك، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه. وصديقه: مفعول مقدم، وإلى الحول: متعلق بقولا، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه. وقيل: أقحمه إشارة إلى أنه لا أمان لهما بعد موته، وفي «ثم» إيماء إلى أنه لم يسلم الآن، وإنما ذلك بعد الحول، والمراد أنه لا يخطر ببالهما ولا يحزنا عليه بعد ذلك، فعبر عنه بسلام الموادعة الذي يلزمه الافتراق، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة. ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت، ثم قال: ومن يبك مصابه حولاً كاملاً فقد أبلغ في العذر، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه، أي: وأنتم كذلك.
ينظر ديوانه ص ٢١٤، الأغاني ١٣/ ٤٠، خزانة الأدب ٤/ ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤٢، الخصائص ٣/ ٢٩، لسان العرب (غدر)، شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٤، العقد الفريد ٢/ ٧٨، ٣/ ٥٧، بغية الوعاة ١/ ٤٢٩، الدرر ٥/ ١٥، المقاصد النحوية ٣/ ٣٧٥، المنصف ٣/ ١٣٥، الأشباه والنظائر ٧/ ٩٦، شرح الأشموني ٢/ ٣٠٧، شرح عمدة الحافظ ص ٥٠٧، والمقرب ١/ ٢١٣، همع الهوامع ٢/ ٤٩، ١٥٨، بلا نسبة في أمالي الزجاجي ص ٦٣، شرح ديوان الحماسة ٢/ ٨٩٤، تأويل المشكل ٢٥٥، مجاز القرآن ١/ ١٦، الطبري ١/ ٨٠، النكت والعيون ١/ ٤٧، الدرر ١/ ٥٢، فتح القدير ٢/ ٤٠٩.

(١) وَجَـاءُونـا بـهـم سـكـر عـلـيـنـا فأجلى القوم والسكران صاحي

السكر والسكر: كالبعد والبعد، و«بهم سكر» جملة حالية. و«علينا» متعلق بسكر: أي جاءنا القوم غضاباً علينا، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه. والحال أن السكران منهم مفلق من سكره. ويروى «فأجلى اليوم» أي زال ومضى، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم: أي لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره، لعلمه أنه ليس أهلاً لذلك، فأجلى هنا لازم.
وهو لعتي بن مالك العقيليّ في تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (سكر)، وديوان الأدب ٢/ ٢٣٣، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٦، وإصلاح المنطق ص ٨٧، وتاج العروس (سكر)، وأساس البلاغة (سكر).

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم، لما نجاكم.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾؟

قلت: بمحذوف دلّ عليه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ أي: تجري وهم فيها، ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره[1]، وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال؛ ألا ترى إلى قول ابنه: «سآوي. إلى جبل يعصمني من الماء». قيل: كان اسم ابنه: كنعان، وقيل: يام، وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: «ابنها»، والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: «ابنه»، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته؟ فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إنّ الله حكى عنه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: (من أهلي)، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمّه وجهان:

أحدهما/ ٣٣١ب: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقرأ السدي: «ونادى نوح ابناه»، على الندبة والترثي، أي: قال: يا ابناه، والمعزل: مفعل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل:

---

(١) قوله: «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جدا وارتفع. ومنه يقال: بحر زاخر.

كان في معزل عن دين أبيه، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قرئ بكسر الياء؛ اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: يا بنيا، أو سقطت الياء والألف؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: إلا الراحم وهو الله تعالى[1]، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء، قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم، يعني: السفينة، وقيل: «لا عاصم»، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله؛ كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] وقيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم؛ كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقرئ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: على البناء للمفعول.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز[2] على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾، و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ثم

---

(١) قال محمود: «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم... إلخ» قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس. وزاد الزمخشري خامساً؛ وهو لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمارد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز، وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «نداء الأرض والسماء بما ينادي به العاقل... إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحياناً، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحده فيها، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ الآية. والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين. ومنه [من الرجز]:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة [من الرجز]:

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعني لا تمدح نفسك فإنك المنفرد بالممادح، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها.

أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، و﴿أَقْلِعِى﴾: من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمته، وجلالته، وثوابه، وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء، والبلع: عبارة عن النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: من غاضه إذا نقصه، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: واستقرّت السفينة، ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾: وهو جبل بالموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يقال: بعد بعداً وبعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك؛ ولذلك اختص بدعاء السوء، ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل/ ٣٣٢أ قادر، وتكوين مكون قاهر، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: (ابلعي)، و: (أقلعي)؛ وذلك، وإن كان لا يخلى الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرّت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي أنها مرت بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أنّ نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾، مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: (رب)، فكيف عطف: (قال رب) على: (نادى) بالفاء؟

قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ

﴿رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤] بغير فاء، ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾: وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدلهم[١]؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، ويجوز أن يكون من الحكمة، على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى: النسبة كما قيل: دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وأنّ نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب[٢] وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك ـ وإن كان أمس أقاربك رحماً ـ فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمّه، كقولها [من البسيط]:

.... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[٣]

وقيل: الضمير: لنداء نوح، أي: إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد[٤]؟

---

(١) قال محمود: «قال أي أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم... إلخ» قال أحمد: ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى: أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأقضاهم في الوصف، وأن يزاد عليهم، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة: أي هو الذي يقضي بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه أو إقليمه. وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم علي» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم: قاضي القضاة، وأقضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب.

(٢) قوله: «من الأباعد في المنصب» لعله تحريف، وأصله في النسب (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قال محمود: «فهلا قيل: إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفي عنه... إلخ» قال أحمد: ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: إني لا أملك لكم من الله شيئاً، أو قال ذلك كل واحد منهم بخصوصه.

قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى/ ٣٣٢ب من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك؛ كقوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحريم: ١٠]، وقرئ: عمل غير صالح أي عمل عملاً غير صالح. وقرئ: «فلا تسئلنّ»، بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟

قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة، ووعظه ألاّ يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده[1] أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق، تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له، وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟

قلت: إن الله ـ عز وعلا ـ قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب؛ لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وألاّ تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من

---

(١) قال محمود: «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده... إلخ» قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول: لما وعد نوح أولاً تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً. وأما قوله ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين. والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم.

المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب ألاّ يشتبه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته؛ تأدباً بأدبك، واتعاظاً بموعظتك، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾: ما فرط مني من ذلك، ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾: بالتوبة عليّ، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: أعمالاً.

﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

وقرئ: «يا نوح اهبط»، بضم الباء، ﴿بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾: مسلماً محفوظاً من جهتنا، أو مسلماً عليك مكرّماً، ﴿وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾: ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ: «وبركة»، على التوحيد، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: يحتمل أن تكون من للبيان، فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأنّ الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لإبداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وَأُمَمٌ﴾: رفع بالابتداء، و﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾: صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم؛ وإنما حذف؛ لأنّ قوله: (ممن معك) يدل عليه، والمعنى: أنّ السلام منا، والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح ـ عليه/ ٣٣٣أ السلام ـ أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة، وعن كعب بن محمد القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر، وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلاً، منهم من رحم، ومنهم من عذب، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم: هود، وصالح، ولوط، وشعيب.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى قصة نوح ـ عليه السلام ـ ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك، ﴿مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾: من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي

كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت، ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾: على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك، ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه، ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾: في الفوز والنصر والغلبة: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا قَوۡمُكَ﴾: معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذ لم يكن ذلك شأنهم، ولا سمعوه، ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿أَخَاهُمۡ﴾: واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً، و﴿هُودٗاۚ﴾: عطف بيان؛ و﴿غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: «غيره»، بالجرّ صفة على اللفظ، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾: تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء، ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك، قيل: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾: آمنوا به، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: من عبادة غيره؛ لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، «والمدرار»: الكثير الدرور، كالمغزار؛ وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر، وزيادة القوّة؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع، وبساتين، وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين[1] بما أوتوا من شدّة القوّة، والبطش، والبأس، والنجدة، مستحرزين بها من العدوّ، مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوّة في المال، وقيل: القوّة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم، وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنه وفد على معاوية، فلما خرج، تبعه بعض حجابه، فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشر بنين، فبلغ/ ٣٣٣ب ذلك معاوية، فقال: هلا سألته ممّ قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله

(١) قوله: «وكانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح: الدل قريب من الهدى، وهما من السكينة والوقار (ع).

الرجل؟ فقال: ألم تسمع قول هود ـ عليه السلام ـ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: ولا تعرضوا عني، وعما أدعوكم إليه وأُرغبكم فيه، ﴿مُجْرِمِينَ﴾: مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠]، مع فوت آياته الحصر، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾: حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: مفعول نقول، وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدّك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين[1]، وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر، وأوتاد الشرك؛ وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام، سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً، والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادّة؛ وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة[2] أراد أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت[3]، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه؛ حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب، من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم؛ ونحو ذلك قال نوح ـ عليه السلام ـ

---

(١) قوله: «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة (ع).

(٢) قوله: «وضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلعه (ع).

(٣) قوله: «لا يبالون بالبهت» رمي الشخص بما ليس فيه (ع).

لقومه: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، أكد براءته من آلهتهم، وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أني لا أفعله.

فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟[1]

قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة/ ١٣٣٤أ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد على أني لا أحبك؛ تهكماً به، واستهانة بحاله، ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطاناً، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾: أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار؛ فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معزتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضرّ ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي؟

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

ولما ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فإن تتولوا.

---

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... إلخ» قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاده لله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهاد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده في هذا المقام معهم. ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟

قلت: معناه: فإن تتولوا، لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾: كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾: بتوليكم، ﴿شَيْئًا﴾: من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضارّ والمنافع؛ وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: «ويستخلف»، بالجزم، وكذلك: «ولا تضروه»، عطفاً على محل: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾، والمعنى: إن يتولوا، يعذرني، ويستخلف قوماً غيركم، ولا تضروا إلا أنفسكم، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيب عليه مهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها، حافظاً لها، وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضارّ، لم يضر مثله مثلكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم، نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ؛ وذلك أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ بعث عليه السموم، فكانت تدخل في أنوفهم، وتخرج من أدبارهم، فتقطعهم عضواً عضواً، وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ، وقوله: «برحمة منا»، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾: إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾/ ٣٣٤ب؛ لأنهم إذا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسل الله، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، يريد: رؤساءهم، وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم، ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل، جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، تكبهم على وجوههم في عذاب الله، و﴿أَلَا﴾: وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم؛ تهويل لأمرهم وتفظيع له، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم.

فإن قلت: ﴿بُعْدًا﴾ دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟

قلت: معناه: الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له؛ ألا ترى إلى قوله [من المديد]:

إِخْـوَتِـي لا تَـبْـعَـدُوا أَبَـداً وَبَـلَـى وَاللهِ قَـدْ بَـعِـدُوا[1]

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾: عطف بيان لعاد.

فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان[2]، والبيان حاصل بدونه؟

قلت: الفائدة فيه: أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً، وتجعل فيهم أمراً محققاً، لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأنّ عاداً عادان: الأولى: القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى: إرم.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ

---

(١) إخـوتـي لا تـبـعـدوا أبـداً وبـلـي والله قـد بـعـدوا
مـا أمـرّ الـعـيـش بـعـدكـم كـل عـيـش بـعـدكـم نـكـد
لـيـت شـعـري كـيـف شربـكـم؟ إن شـربـي بـعـدكـم ثـمـد

لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. وتقول العرب: بعد بالضم في ضد القرب، وبالكسر في الهلاك، ومضارع الأول مضموم، ومضارع الثاني مفتوح. وما في البيت منه. وما أمر: تعجب، وشبهت العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكنية، وإثبات المرارة تخييل. أو استعارتها للنقص على طريق التصريحية. والنكد: العسر الضيق المنغص. والثمد: الماء القليل الذي لا مادة له فينقطع سريعاً. ورجل مثمود، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ما عنده. والمعنى: أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل، وعبرت بذلك لمشاكلة ما قبله. ويروى لها بعد البيت الأول:

لـو تـمـلـتـهـم عـشـيـرتـهـم لاقـتـنـاء الـعـز أو ولـدوا
هـان مـن بـعـض الـرزيـة أو هـان مـن بـعـض الـذي أجـد
كـل مـا حـي وإن أمـروا واردو الـحـوض الـذي وردوا

ومعنى تملتهم: عاشوا معهم مليا من الزمان، وأقحمت «من» مع إغباء «بعض» عنها، للدلالة على تبغيض البغض. و«ما» مقحمة، بني كل حي مبالغة في العموم. وأمروا بالكسر: كثروا. والحوض: تمثيل للموت.

ينظر: شرح شواهد المغني (٢/٥٤٣)، ومغني اللبيب (١/١٩٨)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٩١٢).

(١) قال محمود: «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد... إلخ» قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى تناسب الآي بذلك، فإن قبلها ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقبل ذلك حفيظ وغليظ، وغير ذلك مما هو على وزن فعيل المناسب لفعول في القوافي، والله أعلم.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: وأمركم بالعمارة، والعمارة: متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادي، فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل [من البسيط]:

لَيْسَ الفَتَىٰ بِفَتًى لاَ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَلاَ تَكُونُ لَهُ فِي الأَرْضِ آثَارُ[1]

وقيل: «استعمركم من العمر»، نحو: استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون استعمر في معنى: أعمر؛ كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أعمركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم.

والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده، فكأنما أعمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره، ﴿قَرِيبٌ﴾: داني الرحمة

---

(١) قوله: «بفتى» خبر ليس. و«لا يستضاء به» صفته. ويجوز أنه حال من الفتى الأول، شبهه في حسن الرأي وهداية المستشير بسراج منير. ويمكن أن شبهه بكوكب في السماء، ليقابل الأرض بعده. والجامع ما مر. ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر، كما أن المشبه به يكشف ظلمة الليل، وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل. روي أنه قيل لمعاوية: لم أكثرت من حفر الأنهار وغرس الأشجار وإحياء القفار؟ فقال: ما حملني عليه إلا هذا البيت، فالآثار هي ما كان يفعله. ويحتمل أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء.

سهل المطلب، ﴿مُجِيبٌ﴾: لمن دعاه وسأله، ﴿فِينَا﴾: فيما بيننا، ﴿مَرْجُوًّا﴾: كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لننتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول، انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدّمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على/ ٣٣٥أ ما نحن عليه، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: حكاية حال ماضية، ﴿مُرِيبٍ﴾: من أرابه إذا أوقعه في الريبة، وهي قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من «أراب الرجل»: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي، قيل: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: بحرف الشك، وكان على يقين أنه على بينة؛ لأنّ خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدّروا أني على بينة من ربي، وأني نبيّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾: إذن حينئذ[1]، ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي، وتحملونني عليه غير أن أخسركم، أي: أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون، ﴿ءَايَةً﴾: نصب على الحال، قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قلت: فبم يتعلق: ﴿لَكُمْ﴾؟

قلت: بآية حالاً منها متقدّمة؛ لأنها لو تأخرت، لكانت صفة لها، فلما تقدمت، انتصبت على الحال، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾: عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً؛ وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم، ﴿تَمَتَّعُوا﴾: استمتعوا بالعيش، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾: في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، أي: يتصرف، يقال: ديار بكر، لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون: من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك: يوم مشهود؛ من قوله [من الطويل]:

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ... .....[2]

---

(١) قوله: «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة (ع).

(٢) ويوم شهدناه سليماً وعامراً قليل سوى الطعن النهال نوافله

يقول: ورب يوم شهدنا فيه، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين: الأول الضمير، والثاني: سليماً، أي قبيلتهما «قليل» صفة ليوم. و«نوافله» فاعل به، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعي حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا ينالون من قومه إلا الطعن، تهكماً بهم، فالاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع. ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته، فهو متعدد أيضاً. والنهال: جمع ناهل، أي ريان أو عطشان على التشبيه هنا، فهو من الأضداد، ووصف =

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفى به، فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول. وكالمصدوقة بمعنى: الصدق، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن؛ كقوله [من الطويل]:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ..... (١)

فإن قلت: علام عطف؟

قلت: على نجينا؛ لأنّ تقديره: ونجيناهم من خزي يومئذ، كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي: من ذله، ومهانته، وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة، وقرئ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾، و(ثمود): كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحيّ أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى: القبيلة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

= الطعن بأنه ناهل مجاز عقلي؛ لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس. والمعنى: أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.

البيت لرجل من بني عامر في الدرر ٣/ ٩٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٦، ولسان العرب (جزى)، الأشباه والنظائر ١/ ٣٨، وخزانة الأدب ٧/ ١٨١، ٨/ ٢٠٢ و١٠/ ١٧٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٨، مغني اللبيب ٢/ ٥٠٣، والمقتضب ٣/ ١٠٥، والمقرّب ١/ ١٤٧، وهمع الهوامع ١/ ٢٠٣، وأمالي ابن الشجري ١/ ٦، الكامل ٢١ والدر المصون ١/ ٢١٤.

(١) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت: ألما أصح والشيب وازع؟

للنابغة الذبياني، وبنى حين على الفتح لإضافته إلى مبني، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلي. والمعنى: عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا، أي الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله: «فقلت» بيان للعتاب، أي: إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا، والحال أن الشيب زاجراً لي عن موجب العتاب، والاستفهام توبيخي: أي لا ينبغي ذلك، ووزعته فاتزع: كففته فامتنع؛ فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج، وأوزعني: ألهمني ما يصلح شأني.

ينظر شرح المفصل ١/ ٤٥٨، وشرح الأشموني ٢/ ٢٥٦، شرح شواهد المغني ٢/ ٨١٦ و٨٨٣، والدر المصون ٢/ ١٧.

قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

﴿رُسُلُنَآ﴾: يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ وملكان معه، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر/ ٣٣٥ب، ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد، ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾: سلمنا عليك سلاماً، ﴿سَلَٰمٞۖ﴾: أمركم سلام، وقرئ: «فقالوا سلما قال سلم»، بمعنى: السلام، وقيل: «سلم وسلام»، كحرم وحرام؛ وأنشد [من الطويل]:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ ... كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ[1]

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾: فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو: فما لبث مجيئه، والعجل: ولد البقرة، ويسعى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ البقر، ﴿حَنِيذٖ﴾: مشويّ بالرضف[2] في أخدود، وقيل: (حنيئذ): يقطر دسمه، من حنذت الفرس، إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً؛ ويدل عليه: ﴿بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]، يقال: نكره، وأنكره، واستنكره، ومنكور: قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرك، ولكن منكر، ومستنكر، وأنكرك، قال الأعشى: [البسيط]

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا[3]

قيل: كان ينزل في طرف من الأرض، فخاف أن يرويدوا به مكروهاً[4]، وقيل: كانت

---

(١) لذي الرمة غيلان بن عقبة، يقول: مررنا بديار المحبوبة ميّ، فقلنا إيه، أي حدثي واستأنسي، فأسرنا سلم، أي سلامة وأنس، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة. واكتل اكتلالاً: لمع لمعاناً واللوائح الظواهر: صفة للغمام، لتعدده معنى.
ينظر البيت في البحر المحيط ٥/ ٢٤٢، ومعاني الفراء ٢/ ٢١، وروح المعاني ١٢/ ٩٤، والطبري ١٥/ ٣٨٣، واللسان (سلم)، والدر المصون ٤/ ١١٢.

(٢) قوله: «مشوي بالرضف» أي الحجارة المحماة، كما في الصحاح (ع).

(٣) للأعشى. ويقال: أنكره ونكره: جهله ونفر منه: أي جهلتني المحبوبة، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل: إن أبا عبيدة سمع بشاراً ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول: إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه، فتعجب أبو عبيدة من فطنته، كأنه صح عنده إنكاره.
ينظر ديوانه (١٣٧)، والمحتسب ٢/ ٢٩٨، والخصائص ٣/ ٣١٠، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٣، والبحر المحيط ٥/ ٢٤٢، وروح المعاني ١٢/ ٩٠، والتهذيب ١٠/ ١٩١، وإعراب النحاس ٢/ ٢٩٢، والدر المصون ٤/ ١١٣، الموشح ٥٢، الصحاح (نكر)، التاج (نكر)، الأغاني ١٦/ ١٨.

(٤) قال محمود: «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهاً. . . . إلخ» قال أحمد: وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس =

عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر: أنه أحسّ بأنهم ملائكة، ونكرهم؛ لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه؛ ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا، (فأوجس): فأضمر[1]؛ وإنما قالوا: (لا تخف)؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم، وفي مصحف عبد الله: «وامرأته قائمة» وهو قاعد، ﴿فَضَحِكَتْ﴾: سروراً بزوال الخيفة[2]، أو بهلاك أهل الخبائث، أو: كان ضحكها ضحك إنكار؛ لغفلتهم، وقد أظلهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك؛ فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: ضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: (فضحكت) بفتح الحاء، ﴿يَعْقُوبَ﴾: رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي: من بعده، وقيل: الوراء: ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم، من الوراء، وكان ولد ولده، وقرئ: (يعقوب): بالنصب، كأنه قيل: «ووهبنا لها إسْحَاق»، ومن وراء إسْحَاق يعقوب؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلاَ نَاعِبٍ.........[3]

= منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤوا. الثاني: في الحجر قوله ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فلم يطمئنوا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤوا فيه. الثالث: في الذاريات ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ﴾ فهو أيضاً كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.

(١) عاد كلامه. قال: «ومعنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري والله أعلم، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة. والله الموفق للصواب.

(٢) عاد كلامه. قال: «وضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة... إلخ» قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد (يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب) فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله الموفق.

(٣) تقدم.

الألف في: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾: مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في: «يا لهفاً»، و«يا عجباً»، وقرأ الحسن: «يا ويلتي»، بالياء على الأصل، و﴿شَيۡخٗا﴾: نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة، وقرئ شيخ، على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي: بدل من المبتدأ، وشيخ: خبر، أو يكونان معاً خبرين، قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، ولإبراهيم مائة/ ٣٣٦أ وعشرون سنة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾: أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله؛ وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها[1] ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة ـ صلوات الله عليهم ـ في قولهم: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب، وأمر الله: قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾: كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب؛ فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: «الرحمة النبوة»، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم، ﴿حَمِيدٞ﴾: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ﴿مَّجِيدٞ﴾: كريم كثير الإحسان إليهم، وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص؛ لأن (أهل البيت): مدح لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾

(الروع): ما أوجس من الخيفة، حين نكر أضيافه، والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخرف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة.

فإن قلت: أين جواب لما؟

قلت: هو محذوف كما حذف قوله: ﴿فَلَمَّآ ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: كلام مستأنف دال على الجواب، وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتدأ فقال: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ وقيل في: (يجادلنا)، هو: جواب لما؛ وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد «إن»: الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه:

---

(١) قوله: «ولا يزدهيها» في الصحاح: زهاه وازدهاه: استخفه وتهاون به (ع).

أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إياهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون، رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير[1]، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غير عجول على كل من/ ٣٣٦ب أساء إليه، ﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير التأوّه من الذنوب، ﴿مُّنِيبٌ﴾: تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب، والرأفة، والرحمة، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة، والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: على إرادة القول، أي: قالت له الملائكة، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾: الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: وهو قضاؤه، وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مردّ به بجدال، ولا دعاء، ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، روي أنّ الله تعالى قال لهم: «لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات»، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها، يقال: يوم عصيب، وعصوصب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شدّه.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

---

(١) قوله: «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون.

لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

﴿يُهْرَعُونَ﴾: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها؛ فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾؛ أراد أن يقي أضيافه ببناته؛ وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوّجوهنّ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي، وهما كافران (٧٦٤)، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه: وقرأ ابن مروان: «هنّ أطهر لكم»، بالنصب، وضعفه سيبويه، وقال: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: (هن أطهر): بالنصب فقد تربع في لحنه؛ وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و(هنّ): فصل، وهذا لا يجوز؛ لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذي الحال، وقد خرّج له وجه لا يكون

---

٧٦٤ ـ أخرجه الطبراني في معجمه (٢٢/ ٤٢٦) رقم (١٠٥٠)، وابن هشام في سيرته (٢/ ٣٢٣) رقم (٨٠٩)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة»: ص (٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩)؛ وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٩/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، وقال: رواه الطبراني وإسناده منقطع.

قال الحافظ:

قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح: يقال ضقت بالأمر ذرعاً، إذا لم تعلقه ولم تقر عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد؛ فكأنك تريد: مددت يدي إليه فلم تنله.

قلت: قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش، وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبي العاص بن الربيع بنت رسول الله ﷺ وكذا عتبة بن أبي لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالاً وأمانة، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه، فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة آمنت خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب بنته رقية. فلما دعا قريشاً إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمداً من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبي العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب. ففارق رقية. وزوجوه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعدة عثمان بن عفان. فذكر قصة أبي العاص وأسره ببدر»، وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة: «أن النبي ﷺ زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبي لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين. انتهى.

(هنّ) فيه فصلاً؛ وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ، و(بناتي هنّ): جملة في موضع خبر المبتدأ؛/ ٣٣٧ أ كقولك: هذا أخي هو، ويكون: (أطهر): حالاً، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بإيثارهنّ عليهم، ﴿ولا تخزون﴾: ولا تهينوني، ولا تفضحوني، من الخزي، أو: ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء، ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾: في حق ضيوفي؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره، فقد خزي الرجل؛ وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة، ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء، وقرئ: «ولا تخزون»، بطرح الياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم، وإظهاراً لشدّة امتعاضه[1] مما أوردوا عليه؛ طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده، وعندهم ألاّ مناكحة بينه وبينهم، ومن ثمّ: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾: مستشهدين بعلمه، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾؛ لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابريّ[2]، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً ودِيناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأنّ نكاح الإناث من الباطل؛ فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة، ﴿لَنَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: عنوا إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾

جواب «لو»: محذوف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو أنّ لي بكم قوّة، لفعلت بكم وصنعت، يقال: مالي به قوّة، ومالي به طاقة؛ ونحوه: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُمۡ بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، ومالي به يدان؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقلّ به، والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قويّ أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته؛ ولذلك قالت الملائكة؛ وقد وجدت عليه ـ: إنّ ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ «رَحِمَ الله أَخِي لُوطاً، كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٧٦٥) وقرئ: (أو آوي): بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل:

---

٧٦٥ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٦١): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف =

---

(١) قوله: «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر: غضب منه وشق عليه، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين: نوع من الثياب رقيق، منسوب إلى سابور من الأكاسرة، كذا بهامش. وفي الصحاح: عرضت له الشيء. أي أظهرته له وأبرزته إليه. يقال: عرضت له ثوباً مكان حقه. وفي المثل: عرض سابري؛ لأنه ثوب جيد يشترى بأول عرض ولا يبالغ فيه.

لو أن لي بكم قوّة أو أويا؛ كقولها [من الوافر]:

لَـلُـبْـسُ عَـبَـاءَةٍ وَتَـقَـرَّ عَـيْـنِـي ..... (١)

وقرئ: (إلى ركن): بضمتين، وروي أنه أغلق بابه حين جاءوا أو جعل يرادّهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

= تحيي الموتى﴾، حديث (٤٥٣٧)، ومسلم (١/ ٤٦٠ ـ النووي): كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث (٢٣٨/ ١٥١)، ومسلم أيضاً (٨/ ١٣٤ ـ النووي): كتاب الفضائل: باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث (١٥٢/ ١٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥) كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٦)؛ كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث.

---

(١) لـبـيـت تـخـفـق الأرواح فـيـه ... أحـب إلـي مـن قـصـر مـنـيـف

ولـبـس عـبـاءة وتـقـر عـيـنـي ... أحـب إلـي مـن لـبـس الـشـفـوف

لميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره، وكنت قبله في العباءة، فقالت ذلك، أي: لبيت الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلي من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح في جمع ريح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد في عيد، خوف الاشتباه بالعود. ولبس: عطف على ما قبله. ورواية «للبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عيني مع ذلك وسروري، أحب إلي من لبس الشفوف وسخونة عيني وحزني. والشفوف ـ جمع شف ـ: الرقيق من الثياب، كأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوفاً. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا: نحله.

ينظر خزانة الأدب ٨/ ٥٠٣، ٥٠٤، والدرر ٤/ ٩٠، وشرح التصريح ٢/ ٢٤٤، ولسان العرب (مسن)، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٩٧، ومغني اللبيب ١/ ٢٦٧، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٥٣، والمحتسب ١/ ٣٢٦، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٧٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤٧٧، وشرح شذور الذهب ص ٤٠٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٥٠، والكتاب ٣/ ٤٥، والمقتضب ٢/ ٢٧، وشرح الأشموني ٣/ ٥٧١، وشرح المفصل ٧/ ٢٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٤٤، وشرح ابن عقيل ص ٥٧٦، وشرح قطر الندى ص ٢٦٥، وخزانة الأدب ٨/ ٥٢٣، والرد على النحاة ص ١٢٨، والأشباه والنظائر ٤/ ٢٧٧، وأوضح المسالك ٤/ ١٩٢، والجنى الداني ص ١٥٧، ورصف المباني ص ٤٢٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٢، ١١٨، والدر المصون ١/ ٣٥٥، فتح القدير ٢/ ٥٣.

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب، قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه ـ وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا ـ فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله/ ٣٣٧ب تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، فصاروا لا يعرفون الطريق؛ فخرجوا وهم يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط قوماً سحرة، ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله، لم يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره، قرئ: ﴿فَأَسْرِ﴾: بالقطع والوصل، و﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: بالرفع والنصب، وروي أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، وقرئ: ﴿ٱلصُّبْحُ﴾: بضمتين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب؟

قلت: استثناها من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ والدليل عليه قراءة عبد الله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك»، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء، وإن كان الفصيح هو البدل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر ألاَّ يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت، هدّة العذاب التفت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها، وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها؛ فإن هواها إليهم، فلم يسر بها، واختلاف القراءتين؛ لاختلاف الروايتين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنككل؛ بدليل قوله: «حجارة من طين»، وقيل: «هي من أسجله»؛ إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين؛ ويدل عليه قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان، ﴿مَّنضُودٍ﴾[1]: نضد في السماء نضداً معدّا للعذاب، وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً، ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: معلمة للعذاب، وعن الحسن: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد: اسم

---

(١) قوله: «منضود» في الصحاح: نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً، أي: وضع بعضه فوق بعض (ع).

من يرمي به، ﴿وَمَا هِيَ﴾: من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل، عليه السلام؟ فقال: يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة (٧٦٦)، وقيل: الضمير: للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم، ﴿بِبَعِيدٍ﴾: بشيء بعيد، ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى، فكأنها بمكان قريب منه.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ يريد: بثروة واسعة، تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه،/ ٣٣٨أ، كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصله: من إحاطة العدوّ.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟

قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.

فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء[1]، فما فائدة قوله أوفوا؟

قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنّ في

---

٧٦٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/١٤٨): غريب، وذكره الثعلبي عن أنس من غير سند. وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت النهي عن النقصان أمر بالإيفاء... إلخ» قال أحمد: ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده أن يستدل بهذه الآية، فإن الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقيبه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أن النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم: وأما قوله: إن الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وقد سبق بطلانها، وبينا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنّ الموفي عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؛ لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد.

البخس: الهضم والنقص، ويقال للمكس: البخس؛ قال زهير [من الطويل]:

. . . . . وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ ٱمْرِؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ[1]

وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك، والعثي في الأرض نحو السرقة، والغارة، وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: ما يبقى لكم من الحلال[2] بعد التنزه عما هو حرام عليكم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بشرط أن تؤمنوا؛ وإنما خوطبوا بترك التطفيف، والبخس، والفساد في الأرض، وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قلت: بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس[3] والتطفيف،

---

(١) أفي كل أسواق العراق إتاوة؟! وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تستحي منا ملوك وتتقي محارمنا لا تتقي الدم بالدم
لزهير. وقيل: لجابر بن حيي التغلبي، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ، والإتاوة كالكتابة: الرشوة والجعالة: يقال: أتوته أأتوه أتوا وإتاوة: أعطيته الخراج، فهي في الأصل مصدر. والمكس: ما يأخذه العشار. ويروى «بخس درهم» أي نقص درهم، وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم، فقال زهير: لا ينبغي ذلك. و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية، فصارت أداة تحضيض. ويقال: استحيا واستحى كما هنا، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها، أي: لتستح منا الملوك، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم، أي لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم. وروي «ألا يستحي منا المليك ويتقي» إلى آخره، وهو لغة في الملك، والمراد به ملك العراق.
ينظر: شرح اختيارات المفضل ص ٩٥١، ولسان العرب (بوا)، (مكس)، والكتاب ٣/ ٩٥، الدر المصون ١/ ١٦٢، فتح القدير ١/ ١٥٥.

(٢) قال محمود: «بقية الله ما يبقى لكم من الحلال... إلخ» قال أحمد: المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهيا ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي. وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(٣) عاد كلامه. قال: «فإن قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، ومعنى السؤال: أن الكفار إذا قدرنا =

قلت: لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان، وتنبيه على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إياكم، ويجوز أن يراد: ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير[1] لكم؛ كقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأمّا الحرام، فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً[2]، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله، وقرئ: «تقية الله»، بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها؛ وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

كان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلوات/ ٣٣٨ب، وكان قومه إذا رأوه يصلي، تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم؛ ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾: السخرية والهزء ـ والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأن يقال: إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه ـ إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز[3]، وجعلوا الصلاة

= خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الإيمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب، والله الموفق.

(١) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند الله... إلخ» قال أحمد: قد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة. وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولا يسمى رزقاً» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً (ع).

(٣) قوله: «مساق الطنز» في الصحاح: الطنز السخرية. وطنز يطنز فهو طناز، وأظنه مولداً أو معرباً اهـ (ع).

آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون، ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال، ومعنى تأمرك: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾: تأمرك بتكليف أن نترك[1]، ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره، وقرئ: ﴿أصلاتك﴾: بالتوحيد، وقرأ ابن أبي عبلة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء»، بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم[2] والدنانير وتقطيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾: نسبته إلى غاية السفه والغيّ، فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره[3]، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل: معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ أي: من لدنه، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة، وقيل: (رزقاً حسناً): حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

---

(١) قال محمود: «معناه تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيهما» قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون (أن نفعل) معطوفاً على أن نترك، وعلى المشهور: لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على (ما يعبد) كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي أو أن ترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنبه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره: تأمرك بتكليف أن نترك، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله: «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح: حذفت من شعري ومن ذنب الدابة، أي: أخذت اهـ (ع).

(٣) قوله: «لا يبض حجره» في الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلاً قليلاً. وفي المثل: ما يبض حجره، أي ما تندى صفاته (ع).

فإن قلت: أين جواب: (أرأيتم)، وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟

قلت: جوابه محذوف؛ وإنما لم يثبت، لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبيًا على الحقيقة، أيصح لي ألاّ آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟، يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾: يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم/٣٣٩ أ التي نهيتكم عنها، لأستبد بها دونكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر، ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾: ظرف، أي: مدّة استطاعتي[1] للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح: إصلاح ما استطعت، أو مفعول له؛ كقوله: [من المتقارب]:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءَهُ ..... [2]

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾:

---

(١) قال محمود: «ما استطعت ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو يكون مفعولاً للمصدر كقوله: «ضعيف النكاية أعداءه» قال أحمد: والظاهر أنه ظرف. كهو في قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وأما جعله مفعولاً للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذاك. قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصاً في أفصح الكلام. والله أعلم.

(٢) ضعيف النكاية أعداءه ... يخال الفرار يراخي الأجل

نكأ القرح نكأ بالهمز: جرحه بعد اندماله، ونكى العدو نكاية: قتله وجرحه. وأعداءه: مفعول النكاية. وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر. يخال: أي يظن الهرب من العدو يطيل الأجل من جبنه.

ينظر أوضح المسالك ٣/٣٠٨، وخزانة الأدب ٨/١٢٧، والدرر ٥/٢٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٩٤، وشرح الأشموني ١/٣٣٣، وشرح التصريح ٢/٦٣، وشرح شذور الذهب ص ٤٩٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٣٦، وشرح ابن عقيل ص ٤١١، وشرح المفصل لابن يعيش ٦/٥٩، ٦٤، والكتاب ١/١٩٢، والمقرب ١/١٣١، والمنصف ٣/٧١، وهمع الهوامع ٢/٩٣.

وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه، وفي ضمنه تهديد للكفار، وحسم لأطماعهم فيه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

«جرم»: مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى معفولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه؛ قال [من الكامل]:

. . . . . جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً وأكسبته إياه؛ فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبته مالاً أفصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً، وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: (مثلَ ما أصاب)، بالفتح؛ لإضافته إلى غير متمكن؛ كقوله [من البسيط]:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ . . . . . [2]

---

(١) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

لزيادة بن أسماء. ويقال: جرم ذنباً إذا اكتسبه. وجرم النخل: قطعه. وجرمته كذا: إذا أكسبته إياه أو حملته عليه. يقول: طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلته. «جرمت فزارة» أي حق لها بعدها الغضب، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط، واشتهر الرفع عنهم؛ لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول، أي: أحقتهم الغضب، أو أكسبتهم إياه، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها، فهو على إسقاط الخافض.

ينظر لسان العرب (جرم)، وله أو لعطية بن عفيف في خزانة الأدب ١٠/ ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٣٦، ولرجل من فزارة في الكتاب ٣/ ١٣٨، وبلا نسبة في أدب الكتاب ص ٦٢، والاشتقاق ص ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٤٦٥، وجواهر الأدب ص ٣٥٥.

(٢) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا فيها فصرت إلى وجناء شملال

تعطيك مشياً وإرقالاً ودأداة إذا تسربلت الآكام بالآل

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فوق غصن ذات أوقال =

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر، والمساوى، وما يستحق به الهلاك.

فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه[1]؟

قلت: إما أن يراد: وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد، ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث؛ لورودها على زنة المصادر التي هي: الصهيل، والنهيق، ونحوهما، ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: عظيم الرحمة للتائبين، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه، من الإحسان والإجمال.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ۖ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ

= لأبي قيس بن رقاعة يصف ناقته. وقوله: «فيها» أي في دار المحبوبة. والوجناء: الشديدة الصلبة. والشملال: الخفيفة السريعة. والإرقال والدأداة: نوعان من السير، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض، بالتسربل وهو لبس السرابيل: أي الثياب على طريق التصريحية، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم، أو بحنينها إلى وطنها، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب ـ بالكسر: ـ النصيب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال: جمع وقل كجبل وهي الحجارة، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول: لم يمنع نصيبها من الماء عنها، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل، وبني على الفتح لإضافته إلى مبنى، واستعار النطق لتغريد الحمامة على سبيل التصريحية، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقة صوتها ولم ترها ففزعت. أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطرباً لذيذاً، فحنت الناقة إلى وطنها. وذات أوقال: وصف لغصن؛ لأنه جمع غصن كما قيل في فلك، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري. ويجوز أن يقرأ بإضافة غصن إلى ذات، والمعنى: غصن أرض أو شجرة ذات أوقال، لكن الأول أحسن في الوزن. وقد روي: في غصون ذات أوقال، أي: ذات قطع بارزة بعد التعليم، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة، أو صاحبة أحجار، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقة إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك. وقيل: إنه جمع «وقل» بالسكون، وهو شجر المقل. وقيل: يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد، أي ذات ارتفاعات.
ينظر البيت في ديوانه ص (٨٥)، جمهرة اللغة ص (١٣١٦)، خزانة الأدب ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧، الدرر ٣/ ١٥٠، ولأبي قيس بن رفاعة في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٨٠، شرح شواهد المغني ١/ ٤٥٨، شرح المفصل ٣/ ٨٠، الأدب ٦/ ٥٣٢، ٥٥٢، ٥٥٣، سرّ صناعة الإعراب٢/ ٥٠٧، شرح التصريح ١/ ١٥، شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨١، ٨/ ١٣٥، الكتاب ٢/ ٣٢٩، لسان العرب (نطق)، (وقل)، مغني اللبيب ١/ ١٥٩، همع الهوامع ١/ ٢١٩، الدر المصون ٣/ ١٢٧.

(١) قوله: «على ما يقتضيه قوم من حمله» وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث، نحو ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أو معاملة جمع الذكور، نحو ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ لأن الأول مقتضى حمله على لفظه، كما سيأتي في سورة الشعراء، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة، والثاني مقتضى =

إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿مَا نَفْقَهُ﴾: ما نفهم، ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم؛ رغبة عنه، وكراهية له؛ كقوله/ ٣٣٩ب: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه، وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ، ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوة لك، ولا عز فيما بيننا[1]، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً، وعن الحسن: (ضعيفاً): مهيناً، وقيل: (ضعيفاً): أعمى، وحمير تسمي المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد؛ لأنّ (فينا): يأباه؛ ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى، أعمى فيهم وفي غيرهم؛ ولذلك قللوا قومه؛ حيث جعلوهم رهطاً، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة؛ وإنما قالوا: ولولاهم؛ احتراماً لهم، واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: لقتلناك شرّ قتلة، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعزّ علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم؛ وإنما يعزّ علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا؛ ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾، ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه، وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾؟

قلت: تهاونهم به ـ وهو نبيّ الله ـ تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه، كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر

= حمله على معناه وهو ظاهر (ع).

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا... إلخ» قال أحمد: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان مليا بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

لا يعبأ به، والظهريّ: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسيّ، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني، ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾: يجوز أن تكون (من): استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها؛ كأنه قيل: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه، وأينا هو كاذب، وأن تكون/ ٣٤٠ أ موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في: (سوف تعلمون)؟

قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف؛ للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾: وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب، من رقبه، كالضريب والصريم بمعنى: الضارب، والصارم، أو بمعنى: المراقب، كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب، كالفقير، والرفيع، بمعنى: المفتقر والمرتفع.

فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكانتهم[1]، وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم... إلخ» قال أحمد: والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً فالآخر هو المحق قطعاً، فذكره لإحدى العاقبتين صريحاً يفهم ذكر الأخرى تعريضاً والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر، استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيناه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى ﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، =

العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟

قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ يعني: في زعمكم ودعواكم؛ تجهيلاً لهم.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصة[1] عاد، وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟

قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد؛ وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة؛ وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة، الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد[2]، يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصاً[3]، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾: كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين متردّدين، البعد: بمعنى: البعد، وهو الهلاك، كالرشد بمعنى: الرشد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ﴾؟ وقرأ السلمي: «بُعدت»، بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضماني الخير والشر، فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمى جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت، وقيل: معناه: بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾/ ٣٤٠ب: فيه وجهان: أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها، ﴿وَمَآ أَمْرُ

= ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك. كقوله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستغنى عن ذكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(١) قوله: «ساقتي قصة» في الصحاح: ساقة الجيش مؤخره اهـ. ومثله ساقة القصة هنا (ع).

(٢) قوله: «كاللابد» أي المتلبد اللاصق بالأرض، أفاده الصحاح (ع).

(٣) قوله: «بحيث هو قعصا» في الصحاح: يقال مات فلان قعصاً، إذا أصابته ضربة فمات مكانه (ع).

﴿فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: تجهيل لمتبعيه؛ حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل؛ وذلك أنه ادّعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد: الذي فيه رشد، أي: وما في أمره رشد إنما هو غيّ صريح وضلال ظاهر مكشوف؛ وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى ـ عليه السلام ـ وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله: (يقدم قومه): تفسيراً لذلك وإيضاحاً، أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضي، كما استعمل الغيّ في كل ما يذم ويتسخط، ويقال: قدمه بمنى تقدّمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدّمه، ومنه مقدّمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدّم. ومنه مقدّم العين.

فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به؛ فكأنه قيل: يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة، و﴿ٱلْوِرْدُ﴾: المورود، و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾: الذي وردوه، شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار؛ لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضدّه، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾: في هذه الدنيا، ﴿لَعْنَةً﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة، ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: رفدهم، أي: بئس العون المعان؛ وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾: خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك، ﴿مِنْهَا﴾: الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافى الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟

قلت: هي مستأنفة لا محل لها، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾: بإهلاكنا/ ٣٤١أ إياهم، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بارتكاب ما به أهلكوا، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾: فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله، ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، و﴿لما﴾: منصوب بما أغنت، ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾: عذابه ونقمته، ﴿تتبيب﴾: تخسير، يقال: تبّ إذا خسر، وتبيه غيره، إذا أوقعه في الخسران.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

محل الكاف: الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾: والنصب فيمن قرأ: «وكذلك أخذ ربك»، بلفظ الفعل، وقرئ: «إذ أخذ القرى»، ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾: حال من القرى، ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم، ﴿لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ﴾: لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته، اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى، والخشية من الله تعالى، ونحوه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦]. ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى يوم القيامة؛ لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: رفع باسم المفعول الذي هو مجموع، كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟[1]

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة[2] على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول... إلخ» قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً... إلخ.

(٢) قوله: «من دلالة» عبارة النسفي: دلالته (ع).

ـ أيضاً ـ لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه؛ ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب، والثواب، والعقاب، ﴿يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾: مشهود فيه، فاتسع في الظرف[١] بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً ..... [٢]

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهدوه، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، قال [من البسيط]:

..... فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ[٣]

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه، فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل/ ٣٤١ب التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده؛ وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في: (فليصمه)، والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان

---

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف... إلخ» قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكوتاً عنه مبهماً، ومن الإبهام ما يكون تفخيماً، وهذا مكانه.

(٢) تقدم.

(٣) من للخصوم إذا جد الضجاج بهم ... بعد ابن سعد ومن للضمر القود
ومشهد قد كفيت الغائبين به ... في محفل من نواصي القوم مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس ... عند الحفاظ وقلب غير مزءود

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجاً: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمر بالتشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينثني. والقود: جمعه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أي مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم، فالنواصي: استعارة لهم. وفرجته، فككت كربته، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أي غيرة الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه. ينظر: لسان العرب (نصو)، وتاج العروس (نصو)، وأساس البلاغة (نصو).

منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان، فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً، فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، يراد: آخر مدة التأجيل، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾: إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف، وقرئ: «وما يؤخره بالياء».

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

قرئ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟

قلت: الله ـ عزّ وجلّ ـ كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وتعضده قراءة: «وما يؤخره»، بالياء، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم؛ كقوله تعالى: ﴿أن تأتيهم الساعة﴾.

فإن قلت: بما انتصب الظرف؟

قلت: إمّا أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار «اذكر»، وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه.

قلت: المراد إتيان هوله وشدائده، ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾: لا تتكلم، وهو نظير قوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٢١].

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير: لأهل

الموقف، ولم يذكروا؛ لأنّ ذلك معلوم، ولأنّ قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾: يدل عليه، وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿يَجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]، والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

قراءة العامّة بفتح الشين، وعن الحسن: (شقوا): بالضم، كما قرئ: (سعدوا)، والزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّه؛ قال الشَّمّاخ [من من الطويل]:

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ ... زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ[1]

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]؛ وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]؛ ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم: إمّا سماء يخلقها الله، أو يظلهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء.

والثاني: أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد.

فإن قلت: فما معنى: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟

قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير بأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسوءه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه

---

(١) للشماخ يصف حمار وحشي. والمدى: المسافة والغاية. والتطريب: ترديد الصوت وترخيمه. والزفير: إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول: الصوت الذي يردده في حلقه وصدره.

قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ومعنى قوله في مقابلته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّله؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة[1]، إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت[2]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (٧٦٧)؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين ـ زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ـ وتنبيهاً على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير؛ فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث.

---

٧٦٧ ـ أخرجه البزار، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/١٤٨) من طريق الطيالسي ثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً، وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث أنس.

أخرجه ابن عديّ في «الكامل»؛ كما في «تخريج الكشاف» (٢/١٤٨ ـ ١٤٩) من طريق العلاء بن زيد الثقفي عن أنس مرفوعاً.

وأعله بالعلاء بن زيد وقال: هو منكر الحديث.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

الحديث أخرجه البزار قال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: «يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. يعني من الموحدين»، كذا فيه ورجاله ثقات. والتفسير لا أدري ممن هو، وهو أولى من تفسير المصنف، ويؤيده ما رواه ابن عديّ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها، ما فيها من أمة محمد أحد»، وفي الباب عن أبي أمامة رفعه: «يأتي على جهنم يوما ما فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها، يعني من الموحدين»، وأما الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفعه: «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير»، فهو منقطع. ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد. فإن كان محفوظاً فعلى التأويل الأول. والله أعلم. انتهى.

---

(١) قوله: «ولا يخدعنك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد (ع).

(٢) قوله: «لما روى لهم بعض النوابت» في الصحاح: إن بني فلان لنابتة شر. والنوابت من الأحداث الأعمار (ع).

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿عَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: غير مقطوع،/ ٣٤٢ب ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية؛ كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]. لما قصّ قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه، وما أعدّ لهم من عذابه، قال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله ﷺ وعده بالانتقام منهم ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ يريد: أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية، و«ما»: في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدرية وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها، ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: حظهم من العذاب[1]، كما وفينا آباءهم أنصباءهم.

فإن قلت: كيف نصب: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حالاً عن النصيب الموفى؟

قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل؛ ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه، وثلث حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية، أيضاً.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

---

(١) قال محمود: «أي حظهم من العذاب، وإنما نصب غير منقوص حالاً من النصيب الموفى، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وحقه كاملاً» قال أحمد: وهم والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه؟ والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي بمعنى الأخذ. ومن قال: أعطيت فلاناً حقه. كان جديراً أن يؤكده بقوله: «غير منقوص» والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾: التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنّ كلهم، وإنَّ جميع المختلفين فيه، ﴿لَّيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾: جواب قسم محذوف، واللام في (لما): موطئة للقسم، و(ما): مزيدة، والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم، ﴿رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة؛ اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبيّ: «وإن كل لما ليوفينهم»، على أنّ إن نافية، ولما بمعنى: إلا، وقراءة عبد الله مفسرة لها، وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: «وإن كلا لما ليوفينهم»، بالتنوين؛ كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى: مجموعين؛ كأنه قيل: وإنّ كلا جميعاً؛ كقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٧٣].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق، غير عادل عنها، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: معطوف على المستتر في استقم؛ وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت، وليستقم من تاب على الكفر، وآمن معك، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾: ولا تخرجوا عن حدود الله، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه/ ٣٤٣أ من هذه الآية، ولهذا قال: «شيبتني هود والواقعة وأخواتهما» (٧٦٨). وروي أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب، فقال:

---

٧٦٨ ـ تفرد به التّرمذي (٣٢٩٧) دون أصحاب الكتب الستة، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد توسع الدارقطني في «العلل» (١/ ١٩٣ ـ ٢١١) في الكلام على هذا الحديث فليراجع.

قال الحافظ:

وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله، قد شبت، قال: قد شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون. وإذا الشمس كورت» وقال: حسن غريب. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال: اختلف فيه على أبي إسحاق، فقال شيبان كذا. وقال علي بن صالح: عن أبي إسحاق عن أبي حجية قال: وقال زكريا عن أبي إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال: وأطال الدارقطني في ذكر علله واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل ـ ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. فقال: شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، وعَمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت، وأخرجه ابن سعد وابن عديّ من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. وفيه: «الواقعة، والقارعة، وسأل، وإذا الشمس كورت». انتهى.

«شَيَّبَتْنِي هُودُ» (٧٦٩) وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود، فقال: «نعم»، فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا»، ولكن قوله ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾. وعن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ (فاستقم كما أمرت)، قال: افتقرْ إلى الله بصحة العزم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قرئ: «ولا تركنوا»، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء، وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم؛ ونحوه قراءة من قرأ: (فتِمسكم النار): بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا تركنوا»، على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم؛ وتأمّل قوله: (ولا تركنوا): فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين، وحكي أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: جعل الله الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [طه: ٨١]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾، ولما خالط الزهري السلاطين، كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء؛ قال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوّك ممن لم يؤدّ حقًّا، ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك[1] من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ

---

٧٦٩ ـ ينظر الحديث السابق.

---

(١) قوله: «وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره: في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحوا لك في جنب ما أفسدوا... إلخ» (ع).

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩]، فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في/ ٣٤٣ب السماء، والسلام.

وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك، وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً، وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فِي أَرْضِهِ» (٧٧٠). ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: حال من قوله: (فتمسكم) أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلت: فما معنى ثم؟

قلت: معناها: الاستبعاد؛ لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾: غدوة وعشية، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: وساعات من الليل، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأنّ ما بعد الزوال عشيّ، وصلاة الزلف: المغرب والعشاء،

---

٧٧٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٥١): غريب مرفوعاً، وذكره الغزالي كذلك مرفوعاً في موضعين من كتابه إحياء علوم الدين. أ.هـ. والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٥٣ ـ ٥٤) رقم (٩٤٣٢) عن عبد الله بن عمر الرقي عن يونس بن عبيد سمعت الحسن يقول: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه».
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٤٦) من قول سفيان الثوري، في ترجمته فذكره.
وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: (٢/ ٨٧)، (٢/ ١٤٤) مرفوعاً به.
قال الحافظ: قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قولة. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري. انتهى.

وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت؛ كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوله، وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه؛ ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقرئ: «وزُلَفًا»؛ بضمتين، «وزلْفا». بسكون اللام، «وزلفى»: بوزن قربى، فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر، والزلف بضمتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القربى بمعنى القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: «وزلفا من الليل»: وقرباً من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفاً من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرّب بها إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ في بعض الليل، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إِنَّ الصَّلاةَ إِلَى الصَّلاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِر» (٧٧١).

والثاني: «إن الحسنات يذهبن السيئات»: بأن يكن لطفاً في تركها؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو ابن غزية الأنصاري كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ/ ٣٤٤أ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ «أَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِّي، فَلَمَّا صَلَّىٰ صَلاَةَ الْعَصْرِ، نَزَلَتْ، فَقَالَ: نَعَمْ، اذْهَبْ؛ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمِلْتَ» ح، وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره، فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل

---

٧٧١ ـ أخرجه مسلم (أبي) [٢/ ٢٥]: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة و...، حديث (١٤/ ٢٣٣). والتِّرمذي (٢١٤) وأخرجه ابن ماجه (١/ ٣٤٥): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في فضل الجمعة، حديث (١٠٨٦).
وابن خزيمة (١/ ١٦٢): كتاب الصلاة: باب ذكر الدليل على أن الصلوات الخمس إنما تكفّر صغائر الذنوب دون كبائرها، حديث (٣١٤). و(٣/ ١٥٨): في جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة: باب ذكر الخبر المفسر للأخبار المجملة التي ذكرتها في الأبواب المتقدمة، حديث (١٨١٤).
وأخرجه أحمد (٢/ ٤٨٤).
قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». انتهى.

للناس عامة، وروي أنّ رسول الله ﷺ قال له: تَوَضَّأْ وُضوءا حَسَناً وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ»، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٧٧٢)، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، فما بعده:

---

٧٧٢ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/ ٢٩٢): كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، حديث (٣١١٥)، والنَّسائي في تفسيره: (١/ ٥٩٤)، وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو.

قال: وروى شريك عن عثمان عن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٤) رقم (١٨٦٩٧ ـ ١٨٦٩٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥) رقم (٣٧١): كلهم من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٣٨)، وزاد نسبته للبزار وابن مردويه عن أبي اليسر به. وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٢/ ١٨٩): كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة كفارة، حديث (٥٢٦) و(٩/ ٢٦٠): كتاب التفسير، باب: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ حديث (٤٦٨٧)، وذكره تعليقاً في ترجمة باب (٢٦) من كتاب الحدود (١٤/ ٩٣)، ومسلم (٩/ ٩١ ـ ٩٢ ـ النووي): كتاب التوبة باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ حديث (٣٩ ـ ٤٠ ـ ٢٧٦٣/ ٤١)، والتِّرمذي (٥/ ٢٩١): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة هود، رقم (٣١١٤)، وابن ماجه (١/ ٤٤٧): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء أن الصلاة كفارة، رقم (١٣٩٨) و(٢/ ١٤٢١): كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٣٢) رقم (١٨٦٨٩).

كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود به.

وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٣١) رقم (١٨٦٨١ ـ ١٨٦٨٢) من طريق سماك عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود به. وله شاهد أيضاً من حديث معاذ بن جبل: أخرجه الدارقطني في السنن (١/ ١٣٤): كتاب الطهارة باب صفة ما ينقض الوضوء، وما روي في الملامسة والقبلة، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١/ ١٢٥)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ١٣٥) وسكت عنه، والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥٩٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٣٣) رقم (١٨٦٩٥)؛ كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل به.

وذكره السيوطي في الدر المنثور: (٣/ ٦٣٨) وزاد نسبته إلى أحمد والتِّرمذي والنَّسائي وأبي الشيخ وابن مردويه عن معاذ بن جبل نحوه.

قال الحافظ:

كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فإنه قال: كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصاري. والحديث عند التِّرمذي والنَّسائي والبزار والطبراني والطبري من رواية عثمان بن عبد الله ابن موهب عن موسى بن طلحة بن أبي اليسر بن عمرو قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً ـ فقلت لها: في البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معي في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق الله. فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له: فقال استر على نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأطرق طويلاً حتى أوحي إليه: (أقم الصلاة... الآية) قال ابن أبي اليسر: أتيته فقرأها علي. فقال أصحابه: يا رسول الله، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. =

﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: عظة للمتعظين.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله؛ كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به، والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جاء بما هو مشتمل على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانتهاء عن الطغيان، والركون إلى الظالمين، والصبر، وغير ذلك من الحسنات.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل: «لولا» في القرآن، فمعناها: «هلا»، إلا التي في الصافات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [القلم: ٤٩]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾: أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجودة بقية؛ لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم؛ وبه فسر بَيتُ الحماسة [من البسيط]:

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بَقِيَّتُكُمْ ..... (١)

= وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟» وللدارقطني والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها. فقال له النبي ﷺ توضأ وضوءاً حسناً ثم صل. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه النبي ﷺ رجلاً. فدعاه فتلا عليه: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار... الآية﴾، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة». انتهى.

---

(١) يأيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت؟ =

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى، كالتقية بمعنى: التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية»: بوزن لقية، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه: «بقينا رسول الله ﷺ (٧٧٣)، والبقية المرة من مصدره، والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، و(من) في: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾: حقها أن تكون للبيان، لا للتبعيض؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فإن قلت: هل لوقوع هذا/ ٣٤٤ب الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟

قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن، وإن قلت في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا

---

٧٧٣ ـ أخرجه أبو داود (١/ ١١٤): كتاب الصلاة: باب في وقت العشاء الآخرة، حديث (٤٢١) من طريق عاصم بن حميد السكوني عن معاذ بن جبل به.
قال الحافظ: أخرجه أبو داود من حديث معاذ قال «لقينا رسول الله ﷺ في صلاة العتمة فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج... الحديث» انتهى.

= وقل لهم: بادروا بالعذر والتمسوا ... قولاً يبرئكم إني أنا الموت
إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم ... فما علي بذنب عندكم فوت

لروشيد بن كثير الطائي. وزجاه ـ بالتخفيف والتشديد ـ وأزجاه: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتي مصدراً بمعنى البقوي، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنبوا ثم يأتيني أماثلكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس علي بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتيني منكم ذو الإبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك. ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا علي للمحاربة أو للاعتذار، فلا تفوتني مؤاخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في «يأتيني» للإشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله: «بادروا بالعذر».
ينظر: لسان العرب (بقى)، والمحتسب (١/ ١٩٦).

فِيهِ﴾: أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والتترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم، وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، «واتبع الذين ظلموا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قويّ لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؟

قلت: إن كان معناه: واتبعوا: الشهوات، كان معطوفاً على مضمر؛ لأنّ المعنى: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؟

قلت: على أترفوا، أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَكَانَ﴾ بمعنى: صح واستقام، واللام لتأكيد النفي، و﴿بِظُلْمٍ﴾: حال من الفاعل، والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾: قوم، ﴿مُصْلِحُونَ﴾: تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمّة واحدة، أي: ملة واحدة، وهي ملة الإسلام؛ كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وهذا الكلام يتضمن/ ٣٤٥أ نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه

مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾؛ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَكُلًّا﴾: التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾، و﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾: بيان لكل، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: بدل من كلا، ويجوز أن يكون المعنى: كل اقتصاص نقصّ عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، و(ما نثبت به): مفعول نقصّ، ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: من أهل مكة وغيرهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾: على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾: بنا الدوائر، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ فإنه كافيك وكافلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وقرئ: «تعملون»، بالتاء، أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِنُوحٍ وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ، وَلُوطٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَىٰ، وَكَانَ يَوْمَ

القِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ» (٧٧٤).

---

٧٧٤ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ: تقدم إسناده في آل عمران، ويأتي في آخر الكتاب. انتهى.